مذكّرات حمار أصليّ

صالح القاسم

كنتُ أتوقّع كلّ شيء. توقّعتُ أن يقودَني عتّالٌ، فيهدُّ حيلي من التحميل والتنزيل، ولا يرحمني من الضرب والركل. توقّعتُ أن يجرجرَني أولادٌ اشقياء بين الأزقّة والحارات، وأن يركبوا على ظهري ويجلدوا مؤخّرتي بالعصيّ والبرابيش. توقّعتُ أن يسحبني رجلٌ محتقنٌ إلى زاوية مهجورة. لكني لم أتوقّع بتاتًا أن يقودني أحدُهم إلى مسلخٍ ليذبحَني، وليسلخَ جلدي لبيعي - بعد أن يُبهِّر لحمي بالبهارات الشهيّة - إلى المطاعم والفنادق الفخمة!

لم أقاومه عندما أحاط رقبتي بالحبل. قلتُ لنفسي: «فلأرَ ماذا يريد مني.» قادني من رقبتي على عجل، وبطريقة مريبة. أدركتُ ذلك من تلفّته يمينًا وشمالاً، كأنه يسرق شيئًا ثمينًا ولا يريد أحدًا أن يراه (تساءلتُ: أحقًا أصبحتُ ثمينًا إلى هذه الدرجة؟). وبعد أن عبر بي شوارعَ وأزقّةً ضيّقةً، توقّف فجأةً أمام باب حديديّ ضخم، فدفعه بعد أن أزال من أكرته قفلاً كبيرًا.

كان المكان عبارةً عن حوش توزّعتْ على جوانبه غرفٌ ذاتُ أبواب من خشب مكسّر. وكان عطنًا. شاهدتُ آثارَ دماء، وجلودًا مكوّمةً في زاويةٍ قصيّةٍ لصقَ سور الحوش. كان الحوشُ مُسوّرًا بأشجار صنوبر عالية، وبدا وكأنه في غابة مهجورة.

أفلتني الرجلُ ليقفل البابَ الحديديّ خلفه، فاتّجهتُ إلى الجلود بحثًا عن مصدر الرائحة. قلّبتُها بحوافري، فانبعثتْ رائحةٌ كريهةٌ شديدة. وعندما تفحّصتُها جيّدًا عرفتُ مِنْ بينها جلودًا تُشْبه جلودَ القطط والكلاب والحمير، وأدركتُ ما ينتظرني في هذا المكان.

قَطَعَ خوفي طَرْقٌ ضخمٌ على الباب الحديديّ. رأيتُ الرجلَ يركض باتجاه الباب ويفتحه على مصراعيه، لتدخلَ منه سيّارةُ بيك أب محمّلةٌ بحيواناتٍ مختلفة، بعضُها كان ميتًا أو مذبوحًا. ترجّل شخصٌ متكرّشٌ قصير، وأسرع يغلق البابَ خلفه. «أحضِرِ العدّة،» قال وهو يركض، «خلّنا نخلصْ بسرعة قبل أن يشاهدَنا أحد.»

أسرع الرجلُ الأول الى إحدى الغرف القميئة. دفع برجله البابَ الخشبيّ القبيح ودخل، ثم خرج وفي يديه مجموعةٌ من السكاكين، وضعها جانبًا، وراح الرجلان يُنزلان ما في السيّارة من حمولة: جثثَ حمير وكلاب وقطط وبعض الدجاج الميت، جثةَ بقرةٍ مبقورة، خروفًا كان جسدُه ما يزال يتحرّك كمريض يلفظ النزعَ الأخير. وشرع الرجلان يتسابقان في السلخ والتقطيع.

اتخذتُ استعداداتي لأيّ سكّين تمتدّ باتجاهي. لم أعرف إنْ كانت قوتي كافيةً لإبعاد جزّارَيْن محترفيْن ومسلّحيْن بسكاكين حادّة جداً. «لا لن أنتظر تلك اللحظة. عليّ أن أهرب بجلدي قبل أن يقع الفأسُ بالرأس.» كان الرجلان منشغلين عني بالسلخ والتقطيع، وكنتُ أتحيّن فرصةَ الإفلات من هذا الحوش اللعين. لم يمضِ وقت طويل حتى انتهيا من التقطيع. قال المتكرّش القصير: «والآن اذهبْ وأحضرْ بقيّةَ العدّة والبهارات.» وعلى الفور اتجه الرجلُ إلى غرفة أخرى، غاب داخلها بضع دقائق، ثم عاد وهو يحمل بعناءٍ واضحٍ آلةَ فرم لحمٍ كبيرةً، وضعها على الأرض، ووصلها بسلكٍ كهربائيّ طويل ينتهي بقابسٍ أدخله في فيوز كهرباء مربوطٍ إلى جذع شجرة.

ارتفع صوتُ الفرّامة، وراح الرجلانُ يلقمانها اللحمَ. وبعد أن انتهيا جمعا اللحمَ المفرومَ ووضعاه في إناء بلاستيكيّ ضخم، أفرغا فوقه أكياسًا عرفتُ من رائحتها أنها من البهارات، وطفقا يُعملان أيديَهما وأرجلَهما في مزيج اللحم المفروم والبهارات، حتى تيقّنا أنه أصبح جاهزًا.

«أحضر النايلون فورًا،» قال الرجل المتكرّش، وشرعا يعبّئان المزيجَ في أكياس نايلون طُبع عليها بخطّ باهت: «لحم حلال... مستورد خصّيصًا لشركة... صالح لغاية ...». ثم اتّجها إلى نربيش كان موصولاً بصنبور ماء، أمسك القصيرُ المتكرّشُ طرفَه، فيما ذهب الآخرُ وفتح الصنبور. اندفع الماءُ بقوة نحو آثار الدماء ومخلّفاتِ السلخ والتقطيع، فأصاب رذاذُه جسدي، منعشًا روحي التي كانت ترتعد فرقًا لاحتمال تعرّضي لمثلِ ما شاهدتُ للتوّ.

«سيذبحونني الليلةَ لا محالة،» همستُ في داخلي. فجأةً ارتفع صوتُ نانسي عجرم: «أطب طب وأدلع.» مدّ المتكرّشُ القصير يدَه إلى جيبه وأخرج هاتفه الجوّال: «ألو، أبو اصطيف؟ كلّ شيء جاهز. مرّ وخذ البضاعة.» يبدو أنّ أحدهم سيَحْضر بعد قليل، ويجب أن أستغلّ الفرصة لأهرب.

ـ ماذا ستفعل بالحمار الذي جلبته معك اليوم؟ سأل المتكرّش القصير.

ـ سنرى في الغد.

ـ ربما تفكّر في بيعه على أنه لحم بلديّ، قال المتكرّش مقهقهًا.

ـ أتستغرب ذلك؟ الناس لم تعد تفرّق بين البلديّ والمستورَد من كثرة أنواع اللحم المطروح في السوق.

ـ أنت تريد أن تخطرني بذلك؟! أكبرُ دليلٍ لحمتُنا التي نبيعها منذ نحو سنة، ولا من يشوف ولا من يدري.

ارتفع صوتُ نانسي عجرم مرةً أخرى. سارع المتكرّش إلى وضع الهاتف عند أذنه.

ـ أين تقف الآن؟ ابقَ مكانك. عندما أتأكد من خلوّ الطريق أرنّ لك.

ـ لكنْ لماذا لا يأخذ اللحمة مباشرةً من هنا؟

ـ ومنذ متى حضرتك تفهم إلى هذه الدرجة؟ الاحتياط واجب، وعندما يصبح داخل الحوش دعه يرى حمارَك الحيّ هذا فيتأكّد أننا لا نقدّم له إلا الحميرَ الطازجة.

ـ يعرف كلّ شيء، اطمئنّ.

ما إن انفتح البابُ حتى أسرعتُ في اتجاهه بأقصى ما أستطيع. أطلقتُ ساقيّ للريح، من دون أن أنظر إلى الخلف. صاح الرجل: «أسرعْ أسرعْ، لقد هرب الحمار!»

ـ دعه وشأنه. اذا لحقناه انفضح أمرُنا. غدًا أو بعد غد سنعثر عليه ثانيةً.

يجب أن أخبر الشرطةَ. عدوتُ بلا توقّف، وأنا أنظر في كلّ الاتجاهات بحثًا عن مخفر للشرطة. تذكّرت أنّ ثمة واحدًا غير بعيد. تذكّرتُ أيضًا أنه قد لا يُسمح لي بالاقتراب من مخفر شرطة. وماذا لو سمعني أحدُهم أتكلّم واعتقدَ أنني شيطان أو جنّيّ؟ قد يسقط صريعَ الخوف، أو يتناول مسدّسَه على الفور ويقتلني. يجب أخذُ الحيطة والحذر.

جمدتُ في مكاني لا أدري ما أفعل. لكنّي كنتُ مصرّاً على إبلاغ الشرطة مهما كلّف الأمر. يجب أن يتوقّف هؤلاء عن إطعام الناس لحومَ الكلاب والقطط والحمير. نعم يجب أن أوقفهم مهما كلّفني الأمر.

لمحتُ شابّاً يمرّ بالجوار، وهو يقبض على هاتفٍ جوّال ويتحدث. تبعتُه حتى أمّنتُ أنه أصبح بعيدًا عن المخفر ولا يوجد أحد في الجوار. ولما صرتُ قريبًا جدّاً منه نهقتُ بأقصى ما أستطيع، واذا بالهاتف يسقط على الأرض، ويطلق الشابُّ ساقيه للريح. أمسكتُ الهاتف. كان الطرفُ الآخر لا يزال يتكلّم: «ألو، ألو، ماذا يحدث؟»

ـ يجب أن تتصل بالشرطة. هناك عصابةٌ لبيع اللحوم الفاسدة في الحيّ الشرقيّ.

ـ من أنت؟

أغلقتُ الهاتف وحاولتُ طلَب رقم الشرطة. لكنّ حوافري لم تساعدني على كبس الرقم المطلوب بدقّة. ما علاقتي بالموضوع أصلاً، سألتُ نفسي؟ أنا الآن حمار، والبشر هم الذين دفعوني إلى التحوّل. فلأتركْهم وشأنَهم. فلأدعهم يموتون.

لكنّ الحمير لا تحقد، لا تنتقم. وأنا صرتُ واحدًا منها، وعليّ أن أتحلّى بأخلاقها.

كم آذى البشرُ الحميرَ! إنهم ليُلصقون اسمَ الحمار على كلّ قبيح: فهذا مخُّه مقفلٌ كالحمار، وتلك صابرةٌ على زوجها كالحمارة. وفي المقابل لم يصدفْ أن شاهدتُ حمارًا زعل من إنسانٍ لأنه ضربه أو عضّه. الأوْلى أن أشعرَ مع الحمير أكثر من أيّ إنسان آخر. يجب أن أبلغ الشرطة، وإلا فما الفرقُ بيني وبينهم ، أو بيني وبين أيّ مجرمٍ آخر طليق؟